معانى الكلمات :

فرضناها : أوجبنا أحكامها .

بينات : واضحات .

رأفة : عطف وحنان .

المحصنات : العفيفات .

يرمون : يتهمون .

لعنة الله : الطرد من رحمته .

يدرأ : يدفع .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن التشريع لله وحده خالق البشر والكون كله والعالم بما يصلحه ، والحكيم فى شرعه .

٢ ـ أن نعلم أن الحدود شرعت لصيانة الأنساب ولحفظ الأموال والأنفس .

٣ ـ أن نقف على عقوبة الزنا ، وطريقة اللعان .

المحتوى التربوى :

بإعلان قوى حاسم تبدأ هذه السورة بكل مافيها من حدود وتكاليف من آداب وأخلاق ، ويدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقى فى الحياة ، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته فى العقيدة الإسلامية ، وفى فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية .

ومطلع السورة مطلع فريد فى القرآن كله ، الجديد فيه كلمة فرضناها ، والمقصود بها ـ فيما نعلم ـ توكيد الأخذ بكل مافى السورة على درجة سواء ، ففرضية الآداب والأخلاق كفرضية الحدود والعقوبات هذه الآداب والأخلاق المذكورة فى الفطرة ، والتى ينساها الناس تحت تأثير المغريات والانحرافات ، فتذكرهم بها تلك الآيات البينات ، وتردهم إلى منطق الفطرة الواضح المبين .

ويتبع هذا المطلع القوى الصريح الجازم ببيان حد الزنا ، وتفظيع هذه الفعلة التى تقطع ما بين فاعليها وبين الأمة المسلمة من وشائج وارتباطات ، والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء ، وهو الذى لم يحصن بالزواج ، ويوقع عليه متى كان مسلما بالغاً عاقلاً حراً ، فأما المحصن وهو من سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم بالغ فحده الرجم ، وقد ثبت الرجم بالسنة وثبت الجلد بالقرآن ، والجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم .

ونمضى مع حكمة التشريع فنرى أن عقوبة البكر هى الجلد ، وعقوبة المحصن هى الرجم ؛ ذلك أن الذى سبق له الوطء فى نكاح صحيح وهو مسلم حر بالغ قد عرف الطريق النظيف وجربه ، فعدوله عنه إلى الزنا يشى بفساد فطرته وانحرافها ، فهو جدير بتشديد العقوبة ، بخلاف البكر الغفل الغر الذى قد يندفع تحت ضغط الميل ، وهناك فارق آخر فى طبيعة الفعل، فالمحصن ذو تجربة فيه تجعله يتذوقه ويستجيب له بدرجة أعمق مما يتذوقه البكر فهو حرى بعقوبة كذلك أشد .

والقرآن يذكر هنا حد البكر وحده فيشدد فى الأخذ به دون تسامح ولا هوادة ، فهى الصرامة فى إقامة الحد ، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته تراخيا فى دين وحقه ، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين فيكون أرجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

ثم يزيد فى تفظيع الفعلة وتبشيعها فيقطع ما بين فاعليها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة ، والذين يرتكبون هذه الفعلة لا يرتكبونها وهم مؤمنون ، إنما يكون فى حالة نفسية بعيدة عن الإيمان وعن مشاعر الإيمان ، وبعد ارتكابها لا ترضى النفس المؤمنة أن ترتبط فى نكاح مع نفس خرجت عن الإيمان بتلك الفعلة البشعة ؛ لأنها تنفر من هذا الرباط وتشمئز ، والآية تفيد استبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد ، وتحرم نكاح المؤمن للزانية ما لم تتب ونكاح المؤمنة للزانى كذلك وهو ما أخذ به الإمام أحمد .

والإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ويرقيها حتى تصبح المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية ، والإسلام منهج حياة متكامل ، لا يقوم على العقوبة ، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة ، ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ فى الوحل طائعا غير مضطر ، فالإسلام لا يقيم بناءه على العقوبة بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة ، وعلى تهذيب النفوس وتطهير الضمائر وعلى الحساسية التى يثيرها فى القلوب ، والرأفة بالزناة الجناة هو قسوة على الجماعة وعلى الآداب الإنسانية وعلى الضمير البشرى ، وهى رأفة مصطنعة فالله أرأف بعباده وقد اختار لهم .

وكما قلنا إن الإسلام لا يغنى وحده فى صيانة حياة الجماعة بل يعتمد على الضمانات الوقائية وعلى تطهير الحياة كلها من رائحة الجريمة ، لذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن جسم الأمة المسلمة ، ثم يمضى فى الطريق خطوة أخرى فى استبعاد ظل الجريمة من جو الجماعة

فيعاقب على قذف المحصنات واتهامن دون دليل أكيد ، وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التى تصب عليهم ، شدد القرآن الكريم فى عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ؛ ثمانين جلدة مع إسقاط الشهادة والوصم بالفسق ، ويكفى أن يهدرقول القاذف فلا يؤخذ له بشهادة وأن يسقط اعتباره بين الناس ويمشى بينهم متهما لا يوثق له بكلام ، فهو منحرف عن الإيمان خارج عن طريقه المستقيم ، وتظل العقوبات التى توقع على القاذف بعد الحد مصلتة فوق رأسه إلا أن يتوب .

ذلك حكم القذف العام ، ولكن استثنى منه أن يقذف الرجل امرأته مطالبته بأن يأتى بأربعة شهداء فيه إرهاق له وإعنات ، والمفروض ألا يقذف الرجل امرأته إلا صادقا لما فى ذلك من التشهير بعرضه وشرفه وكرامة أبنائه ؛ لذلك جعل لهذا النوع من القذف حكم خاص .

وفى هذه النصوص تيسير على الأزواج يناسب دقة الحال وحرج الموقف ، ذلك حين يطلع الزوج على فعلة زوجته وليس له من شاهد إلا نفسه ، فعندئذ يحلف أربع مرات بالله إنه لصادق فى دعواه عليها بالزنا ، ويحلف يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وتسمى هذه شهادات لأنه الشاهد الوحيد ، فإذا فعل أعطاها قدر مهرها وطلقت منه طلقة بائنة ، وحق عليها حد الزنا وهو الرجم ، ذلك إلا أن ترغب فى درء الحد عنها ، فإنها عندئذ تحلف بالله أربع مرات أنه كاذب عليها فيما رماها به ، وتحلف يمينا خامسة بأن غضب الله عليها إن كان صادقا وهى كاذبة ، بذلك يدرأ عنها الحد ، وتبين من زوجها بالملاعنة ، ولا ينسب ولدها إن كانت حاملا إليه بل إليها ، ولا يقذف الولد ومن يقذفه يحد .

قال السيوطى فى الإكليل : « فى الآية تحريم القذف، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته، وأنه يجلد ثمانين إذا قذف محصنة أى عفيفة ، ومفهومه أنه إذا قذف من عرفت بالزنا ، لا يحد للقذف ، ويصرح بذلك قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ وفيه أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة رجال ولا أقل ولا نساء ، وسواء شهداء مجتمعين أو متفرقين .. » .

وقد عقب على هذا التخفيف والتيسير ومراعاة الأحوال والظروف بأنه لولا فضل الله ورحمته ، يمثل هذه التيسيرات ، والتوبة بعد مقارفة الذنوب ، ولم يبين ما الذى كان ويكون لولا هذا الفضل ليبقى مرهوبا يتقيه المتقون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الأحكام الشرعية يجب تنفيذها بدقة وتطبيقها على الوجه الأكمل مع عدم المجاملة أو المحاباة .

٢ ـ يجب أن تنفذ الحدود على مرأى من الناس حتى يخاف أهل الفجور ، ويكفوا عن ارتكاب الجرائم .

٣ ـ تحريم رمى المحصنات بالفاحشة ، ويجب الستر على المسلمين والمسلمات .

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ
كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾
٣٥١

معانى الكلمات :

الإفك : أقبح الكذب .

عصبة : جماعة .

كبره : معظَمه .

مسكم : أصابكم .

أفضتم فيه : تكلمتم فيه بغير علم .

أفواهكم : ألسنتكم .

بهتان : كذب محير .

تشيع : تنتشر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على شناعة وبشاعة جريمة القذف وعقوبته فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ أن نتعرف على طهارة زوجات النبى ﷺ وشرفهن ، ومكانة السيدة عائشة عند الله وعند رسوله ﷺ .

٣ ـ أن نعلم كراهة اليهود والمنافقين للإسلام والمسلمين ، وكيدهم للدعوة .

المحتوى التربوى :

بعد الانتهاء من بيان حكم القذف يورد نموذجا من القذف يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ، وهو يتناول بيت النبوة الطاهر الكريم ، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبى بكر ﷺ ، أكرم إنسان على رسول الله ﷺ ، وعرض رجل من الصحابة ـ صفوان بن المعطل ﷺ ـ يشهد رسول الله أنه لم يعرف عليه إلا خيراً ، وهو يشغل المسلمين فى المدينة شهراً من الزمان .

ذلك هو حديث الإفك الذى تطاول إلى المرتقى السامى الرفيع ، وحادث الإفك هذا قد كلف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق ، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من

أشق التجارب فى تاريخها الطويل ، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التى يحبها ، وقلب أبى بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل شهراً كاملا ، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذى لا يطاق .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها يتعطف الله تعالى على رسوله ، فينزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع،ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم ، ولقد تجاوز هذا الأمر السيدة عائشة إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته فى الجماعة يومها ، بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها ، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها ، إنما كان رمية للعقيدة فى شخص نبيها وبانيها ، من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل فى القضية المبتدعة ، ويرد المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ويكشف الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله .

والذى جاء بالإفك لم يكن عبد الله بن أبى ابن سلول وحده الذى أطلق ذلك الإفك ، إنما هو الذى تولى معظمه وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ، فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية ، وكان حادث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون، فخاض منهم من خاض فى حديث الإفك كحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة وعلى رأسها ابن سلول الحذر الماكر .

وقد بدأ السياق ببيان تلك الحقيقة ليكشف عن ضخامة الحادث وعمق جذوره ، وما وراءه من عصبة تكيد للإسلام والمسلمين هذا الكيد الدقيق العميق اللئيم ، ثم سارع بتطمين المسلمين من عاقبة هذا الكيد ، فهو يكشف عن الكائدين للإسلام ، ويكشف عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذى فرضه الله ، وهو خير أن يكشف للجماعة المسلمة عن المنهج القويم فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

والذين خاضوا الإفك فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة ، ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله ، وبئس ما اكتسبوه ، فهو إثم يعاقبون عليه فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم ، ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه ، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه ، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج فى مواجهة الأمور ، بوصفه أول خطوة فى الحكم عليها ، وكان الأولى أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وهذه هى الخطوة الأولى ، أما الثانية ، فهى طلب الدليل الخارجى والبرهان الواقعى بالإتيان بأربعة شهداء وإلا كان القذف كذبا وفرية .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفسار الضمير ، وخطوة التثبيت بالبينة والدليل غفل عنهما المؤمنون فى حادث الإفك ،وتركوا الخائضين يخوضون فى عرض رسول الله ﷺ ، وهذا أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم ، فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبداً بعد هذا الدرس الأليم ، فيأخذوا الكلام بالألسنة بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر ، فيقولوا ما ليس لكم به علم ويحسبوا قذف عرض الرسول ﷺ لا ذنب فيه وهو عظيم عند الله ، وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذى تزلزله الرواسى ، وتضج منه الأرض والسماء.

وكان الأولى أن تنكر القلوب مجرد سماعه ، وتتحرج من مجرد النطق به ، وأن تتوجه إلى الله تنزها عن أن يدع نبيه لمثل هذا ، ويأتى أسلوب التربية المؤثر بالتحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم ، مع تعليق الإيمان على الانتفاع بتلك العظة ، والله يكشف الأمور ويعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف ، ويعلم مداخل القلوب وهو حكيم فى علاجها وتدبير أمرها ، ووضع النظم والحدود التى تصلح بها .

ثم يمضى السياق فى التعقيب على حديث الإفك ، وما تخلف عنه من آثار ، مكرراً التحذير من مثله ، مذكراً بفضل الله ورحمته ، والذين يرمون المحصنات إنما يعملون على زعزعة ثقة الجماعة المؤمنة بالخير والعفة والنظافة ، وعلى إزالة التحرج من ارتكاب الفاحشة ، وذلك عن طريق الإيحاء بأن الفاحشة شائعة فيها ، بذلك تشيع الفاحشة فى النفوس لتشيع بعد ذلك فى الواقع .

من أجل هذا وصف الذين يرمون المحصنات بأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، وتوعدهم بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وذلك جانب من منهج التربية وإجراء من إجراءات الوقاية ، يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها ، ومن ذا الذى يعلم أمر هذه النفس إلا الذى خلقها ؟ ومن ذا الذى يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذى برأها ؟ ومن الذى يرى الظاهر والباطن ، ولا يخفى على علمه شىء إلا العليم الخبير .

ومرة أخرى يذكر المؤمنين بفضل الله عليهم ورحمته ، فالشر الكامن فيه لخليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء ، ولكن فضل الله ورحمته ورأفته ورعايته ، ذلك ما وقاهم السوء ، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يربيهم بهذه التجربة الضخمة التى شملت حياة المسلمين.

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ ابتلاء الرسول ﷺ واختباره فى أعز الناس لديه ، ليكون قدوة فى الصبر وتحمل الأذى وحسن التصرف .

٢ ـ العقاب على قدر الجريمة ، والجزاء على قدر العمل .

٣ ـ مجتمع المسلم نظيف طاهر وعلى المسلم ألا يفرط فى طهارته ويشيع الفاحشة فيه .

معانى الكلمات :

الفحشاء : ما عظم قبحه من الذنوب .

المنكر : ما لا يحبه الله .

زكى : تطهر من الذنوب والآثام .

يأتل : يقصر .

المحصنات : العفيفات .

الغافلات : النقيات القلوب .

لعنوا : طردوا من رحمة الله .

تستأنسوا : تستأذنوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الشيطان عدو ظاهر العداوة للإنسان .

٢ ـ أن نتعلم أن الأخلاق الكريمة لا تكون إلا من النفوس الكبيرة .

٣ ـ أن نعرف استحقاق الخبث أهله والطيب أهله .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق فيحذر من اتباع الشيطان ، وإنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان ، فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان ، وأن يسلكوا غير طريقه المشؤوم ، صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله ، ورسم هذه الصورة ، ومواجهة المؤمنين بها يثير فى نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية . وإن الإنسان لضعيف ، معرض للنزاعات ، عرضة للتلوث إلا أن يدركه فضل الله ورحمته حين يتجه إلى الله ، ويسير على نهجه ، فنور الله الذى يشرق فى القلب يطهره ويزكيه ، ولولا فضل الله ورحمته لم يزك من أحد ولم يتطهر ، والله يسمع ويعلم ، فيزكى من يستحق التزكية ، ويطهر من يعلم فيه الخير والاستعداد فهو سميع عليم .

وعلى ذكر التزكية والطهارة تأتى الدعوة إلى الصفح والمغفرة بين بعض المؤمنين وبعض كما يرجون غفران الله لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب ، فقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا فيه ، وهو قريبه ، وهو من فقراء المهاجرين ، وكان أبو بكر ﷺ ينفق عليه ، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحا بنافعة أبداً ، فذكّر قول الله أبا بكر والمؤمنين بأنهم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم ، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذى يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه إن كانوا قد أخطؤوا وأساءوا .

وهنا تطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية التى تطهر بنور الله ، أفق يشرق فى نفس أبى بكر الصديق ﷺ ، أبى بكر الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ويرتفع على منطق البيئة ، فإذا هو يلبى داعى الله فى طمأنينة وصدق يقول : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ويعيد إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبداً ذلك فى مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبداً ، بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ويغسله من أوضار المعركة ؛ ليبقى أبداً نظيفا طاهراً زكيا مشرقا بالنور .

ذلك الغفران الذى يذكر الله المؤمنين به ؛ إنما لمن تاب عن خطيئة رمى المحصنات وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، فأما الذين يرمون المحصنات عن خبث ، وعن إصرار فلا سماحة ولا عفو ، ولو أفلتوا من الحد فى الدنيا ؛ لأن الشهود لم يشهدوا ، فإن عذاب الله ينتظرهم فى الآخرة ، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود ، ويجسم التعبير جريمة رمى المحصنات المؤمنات ، وهن غافلات غارّات تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة ، ومن ثم يعاجل مقترفيها باللعنة ، لعنة الله لهم ، وطردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة ، ويوم القيامة تتهم جوارحه بعضها بعضا ، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك ، ويجزيهم الله الجزاء العدل ، ويؤدى لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « هذه الآية عامة فى كل من يرمى محصنة ، وهى التى عرفت بالتقوى والبعد عن الخنا ... ، ومن يكون لسانه غير منضبط ، يرسل القول إرسالا بين المؤمنين فى المحصنات ، فهى تعم كل من ليس عفيف اللسان ، يرمى النساء بالفحش لأدنى شبهة ، وإن الكامل يعف لسانه عن النطق بالهجر » .

ويختم الحديث عن حادث الإفك ببيان عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة ، وحققه فى واقع الناس ، وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة ، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج ، وما كان يمكن أن تكون عائشة رضى الله عنها كما رموها ، وهى مقسومة لأطيب نفس على ظهر هذه الأرض ، والطيبون والطيبات بفطرتهم

وطبيعتهم لا يلتبس بهم شيء مما قيل ، وهم مغفرة عما يقع منهم من أخطاء ورزق كريم، دلالة على كرامتهم عند ربهم الكريم ، وقد جعل الله هذه المحنة معرضا لتربية الجماعة المسلمة حتى تشف وترق وترتفع إلى آفاق النور .

والإسلام لا يعتمد على العقوبة فى إنشاء مجتمعه النظيف ـ كما أسلفنا ـ إنما يعتمد قبل كل شيء على الوقاية ، وهو لا يحارب الدوافع الفطرية ، ولكن ينظمها ويضمن لها الجو النظيف الخالى من المثيرات المصطنعة ، ومنهج التربية الإسلامية فى هذه الناحية هو تضييق فرص الغواية وإبعاد عوامل الفتنة وأخذ الطريق على أسباب التهييج والإثارة.

ومن هنا يجعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها ، فلا يفاجأ الناس فى بيوتهم بدخول الغرباء عليهم إلا بعد استئذانهم وسماحهم بالدخول ، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت ، وعلى عورات أهلها وهم غافلون ، ذلك مع غض البصر من الرجال والنساء ، وعدم التبرج بالزينة لإثارة الشهوات .

ولقد جعل الله للبيوت سكنا يفيء إليها الناس ، فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا عليها الناس ، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان ، يجعل أعينهم تقع على عورات ، وتلتقى بمفاتن تثير الشهوات وتهيئ الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة .

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالى ، أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم ، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول ، ويعبر عن الاستئذان بالاستئناس ، وهو تعبير يوحى بلطف الاستئذان ، ولطف الطريقة التى يجيء بها الطارق ، فتحدث فى نفوس أهل البيت أنسا به ، واستعدادا لاستقباله ، وهى لفتة دقيقة لطيفة لرعاية أحوال النفوس ، ولتقدير ظروف الناس فى بيوتهم ، وما يلابسها من ضرورات لا يجوز أن يشقى بها أهلها ، ويجرحوا أمام الطارقين فى ليل أو نهار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على المسلم أن يخالف طرق الشيطان المنحرفة عن الحق .

٢ ـ الله سبحانه وتعالى واسع الرحمة يقبل توبة التائبين إذا ندموا ، ولم يعودوا إلى معصية .

٣ ـ ضرورة التثبت والتأكد بالدليل القاطع من آية شائعة قبل تناقلها وروايتها .

٤ ـ على المسلم أن يستأذن قبل الدخول لمن أراد أن يدخل بيتا .

فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

٣٥٣

معانى الكلمات :

أزكى : أطهر .

جناح : إثم .

متاع لكم : مصلحة لكم .

يغضوا : يكفوا .

وليضربن : وليغطين .

التابعين : أشباه الأقارب .

أولى الإربة : الذين يشتهون النساء .

يظهروا : يطلعوا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية .

١ ـ أن نتعلم آداب الاستئذان .

٢ ـ أن نتعرف على فوائد غض البصر .

٣ ـ أن تقف المرأة على حرمة إظهار زينتها لغير المحارم ، وتعرف درجات المحارم .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق بعد الأمر بالاستئذان فيذكر أن البيوت إما أن يكون فيها أحد أو لا يكون ، فإن لم يكن فيها فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان ؛ لأنه لا دخول بغير إذن ، وإن كان فيها أحد من أهلها فإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول ، فإنما هو طلب للإذن ، فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول كذلك ، ويجب الانصراف دون تلكؤ ولا انتظار .

وإن كانت الإجابة على إذنكم بأن ترجعوا فارجعوا دون أن تجدوا فى أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعذارهم ، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملابساتهم فى كل حين ، والله هو المطلع على خفايا القلوب وعلى ما فيها من دوافع ومثيرات .

يقول الإمام **محمد أبو زهرة** : « إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب : **أولها** : أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس . **وثانيها** : احترام الملكية ، سواء

أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه ، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرًا ، **وثالثها** : إزالة وحشة المفاجأة » .

فأما البيوت العامة كالفنادق والمثاوى والبيوت المعدة للضيافة منفصلة عن السكن ، فلا حرج فى الدخول إليها فى غير استئذان دفعا للمشقة ما دامت علة الاستئذان منتفية ، فالأمر معلق باطلاع الله على ظاهركم وخافيكم ، ورقابته لكم فى سركم وعلانيتكم ، وفى هذه الرقابة ضمان لطاعة القلوب ، وامتثالها لذلك الأدب العالى ، الذى يأخذها الله به فى كتابه الذى يرسم للبشرية نهجها الكامل فى كل اتجاه ، فالقرآن منهج حياة ، فهو يحتفل بهذه الجزئية من الحياة الاجتماعية ويمنحها هذه العناية ، لأنه يعالج الحياة كليا وجزئيا ، والاستئذان على البيوت يحقق للبيوت حرمتها التى تجعل منها مثابة وسكنا ، ويوفر على أهلها الحرج من المفاجأة ، والضيق بالمباغتة والتأذى بانكشاف العورات وهى عورات كثيرة تعنى غير ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر هذه اللفظة ، إنها ليست عورات البدن وحدها ؛ إنما تضاف إليها عورات الطعام وعورات اللباس وعورات الأثاث التى قد لا يحب أهلها أن يفاجئهم عليها الناس دون تهيؤ وتجمل وإعداد ، وهى عورات المشاعر والحالات النفسية ، فكم منا يحب أن يراه الناس وهو فى حالة ضعف يبكى لانفعال مؤثر ، أو يغضب لشأن مثير أو يتوجع لألم يخفيه عن الغرباء ؟ !

وبعد الانتهاء من أدب الاستئذان على البيوت ـ وهو إجراء وقائى فى طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة يأخذ على الفتنة الطريق كى لا تنطلق من عقالها ، بدافع النظر لمواضع الفتنة المثيرة وبدافع الحركة المعبرة الداعية إلى الغواية ، فالإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين ، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفئ ولا يرتوى ، وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما وبقوته الطبيعية دون استثارة مصطنعة .

وفى الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين ، فغض البصر من جانب الرجال أدب نفسى ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة فى الاطلاع على المحاسن والمفاتن فى الوجوه والأجسام كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية ، ومحاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ، وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر ، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة ويقظة الرقابة ، والاستعلاء على الرغبة فى مراحلها الأولى ، ومن ثم يجمع بينها فى آية واحدة بوصفها سببا ونتيجة أو خطوتين متواليتين .

وهذا أطهر للمشاعر وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية فى غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيوانى الهابط ، وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها وجوها الذى تتنفس فيه ، والله هو الذى يأخذهم بهذه الوقاية ، وهو العليم بتركيبهم النفسى وتكوينهم الفطرى ، الخبير بحركات نفوسهم وحركات جوارحهم .

وغض البصر للمؤمنات فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة أو الهاتفة المثيرة ، تستثير كوامن الفتنة فى صدور الرجال ، ولا يبحن فروجهن إلا فى حلال طيب ، يلبى داعى الفطرة فى جانب نظيف ، لا تخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه عن مواجهة المجتمع والحياة .

والزينة حلال للمرأة تلبية لفطرتها ، والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها ، ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد هو شريك الحياة ؛ يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه ، ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها المحارمُ المذكورة فى الآية بعد ، ممن لا يثير شهواتهم ذلك الاطلاع ، وما ظهر من الزينة فى الوجه واليدين فيجوز كشفه ، والمؤمنات قد أمرت بالخمار، وهو غطاء الرأس والنحر والصدر ليدارى مفاتنهن، فلا يعرضها للعيون الجائعة، ولا حتى لنظرة الفجاءة التى ينفى المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد تترك كمينا فى أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة ، والله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة أو الابتلاء فى هذا النوع من البلاء .

وهذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة ، ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة ، فيستثنى المحارم الذين لا تتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم : الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبناؤهم ، والإخوة وأبناء الإخوة وأبناء الأخوات ، كما يستثنى النساء المؤمنات ، فأما غير المسلمات فلا ؛ لأنهن قد يصفن لأزواجهن وإخواتهن وأبناء ملتهن ، أما المسلمات فهن أمينات .

ويستثنى كذلك ملك اليمين ـ قيل من الإناث فقط ، وقيل من الذكور كذلك ـ لأن الرقيق لا تمتد شهوته إلى سيدته والأول أولى ، ويستثنى الذين لا يشتهون النساء لسبب من الأسباب كالجب والعتة والبلاهة والجنون وسائر ما يمنع الرجل أن تشتهى نفسه المرأة ، ويستثنى الأطفال الذين لا يثير جسم المرأة فيهم الشعور بالجنس ، فإذا ميزوا وثار فيهم هذا الشعور ، فهم غير داخلين فى هذا الاستثناء ، وهؤلاء كلهم عدا الأزواج ليس عليهم ولا على المرأة جناح أن يروا منها إلا ما تحت السرة إلى تحت الركبة لانتفاء الفتنة .

ولما كانت الوقاية هى المقصودة نهت الآية المؤمنات عن الحركات التى تعلن عن الزينة المستورة ، ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة ، وفى النهاية يرد القلوب كلها إلى الله ، ويفتح لها باب التوبة مما ألمت به قبل نزول القرآن .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الرخصة فى عدم الاستئذان من دخول البيوت والمحلات غير المسكونة للعبد فيها غرض .

٢ ـ وجوب غض البصر وحفظ الفرج .

٣ ـ وجوب ستر المرأة زينتها ومواضع ذلك ما عدا ما يتعذر ستره . للضرورة ، وذلك عدا الأزواج ، والمحارم .

٤ ـ وجوب التوجه من كل ذنب وعلى النور للحصول على الفلاح العاجل والآجل .

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾
٣٥٤

معانى الكلمات :

الأيامى : من لا زوج له .

عبادكم : المملوكين لكم .

الكتاب : عقد المكاتبة .

فتياتكم : إمائكم .

البغاء : الزنا .

تحصنا : تعففا .

درى : متلألئ .

ترفع : تعظم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على الحلول الواقعية فى مواجهة الميول الجنسية الفطرية .

٢ ـ انتداب المسلمين إلى التكافل فى أمر الزواج حرصا على نظافة المجتمع .

٣ ـ أن نستشعر فيض النور الإلهى ، ومحل هذا النور .

المحتوى التربوى :

إلى هنا كان علاج المسألة علاجا نفسيا وقائيا ، ولكن ذلك الميل حقيقة واقعة ، لابد من مواجهتها بحلول واقعية إيجابية ، هذه الحلول الواقعة هى تيسير الزواج والمعاونة عليه ، مع تصعيب السبل الأخرى للمباشرة الجنسية أو إغلاقها نهائيا ، فالزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة ، فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها ، والعقبة المالية هى العاقبة الأولى فى طريق بناء البيوت وتحصين النفوس ، والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء .

لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال ، وطالب بإنكاح الأيامى وهم الذين لا أزواج لهم من الجنسين من الأحرار ، وأفرد الرقيق بالذكر ، وكلهم

ينقصهم المال ، فعلى الجماعة أن تعين الراغبين منهم فى الزواج وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة ، وهو واجب ووسيلة الواجب واجبة .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالا ونساء ، فالرزق بيد الله ، وقد تكفل الله بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف .

وفى انتظار قيام الجماعة المسلمة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج، والله لا يضيق على من ينبغى العفة ، وهو يعلم بنيته وصلاحه .

ولما كان وجود الرقيق ضرورة إذا ذاك لمقابلة أعداء الإسلام بمثل ما يعاملون به أسرى المسلمين ، لما كان الأمر كذلك عمل الإسلام على التخلص من الأرقاء كلما واتت الفرصة ، فأوجب إجابة الرقيق إلى طلب المكاتبة على حريته ، وذلك فى مقابل مبلغ من المال يؤديه فينال حريته ، وهذا يتمشى مع خط الإسلام الرئيسى فى الحرية ، وفى كرامة الإنسانية ، ومنذ المكاتبة يصبح مال الرقيق له وأجر عمله له ، ليوفى منه ما كاتب عليه ، ويجب له نصيب فى الزكاة ، ذلك على شرط أن يعلم المولى فى الرقيق خيراً ، والخير هو الإسلام أولا ، ثم هو القدرة على الكسب فلا يتركه كلاًّ على الناس بعد تحرره .

ويمضى السياق فينهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر ، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث ، ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة بعد الإكراه الذى لا يد لهن فيه ، ويعقب السياق على هذا الشوط بصفة القرآن التى تناسب موضوعه وجوه ، فهو آيات مبينات لا تدع مجالا للغموض والتأويل والانحراف عن المنهج القويم ، وهو عرض لمصائر الغابرين وكان مصيرهم النكال ، وهو موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم رقابة الله فتخشى وتستقيم .

بهذا التعليم وهذا التهذيب وهذا التوجيه عالج الكيان البشرى حتى أشرق بالنور ، واستشرف النور الكبير الذى فى السموات والأرض ، وهو على استعداد لتلقى الفيض الشامل الغامر فى عالم كله إشراق وكله نور ، ويفيض النور الهادئ الوضيء نور رب العالمين ، فيغمر الكون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح ، وينسكب فى الحنايا والجوانح .

يقول ابن القيم فى كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية) : « سمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه نوراً ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله ﷺ نوراً ، ودينه نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه نوراً يتلألأ ، فهو منوّر السموات والأرض ، وهادى أهل السموات والأرض ،

فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض وهذا إنما هو فعله ، وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .

ومثل نور الله سبحانه فى قلب عبده ، وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسول الله ﷺ ، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل ، فالفاعل وهو الله تعالى مفيض الأنوار ، الهادى لنوره من يشاء ، والقابل : العبد المؤمن ، والمحل : قلبه ، والحامل : همته وعزيمته وإرادته ، والمادة : قوله وعمله » .

فمثل نوره تعالى فى قلب عبده المؤمن كمثل مصباح صافٍ لامع لمعان كوكب مشرق يتلألأ كالدر ، ويستمد هذا المصباح وقوده من شجرة كثيرة البركات طيبة التربة والموقع ، وهى شجرة الزيتون المغروسة فى مكان معتدل متوسط فى الفضاء بحيث تفيد من الشمس فى جميع أجزاء النهار، ويكاد زيت هذه الشجرة لشدة صفائه يضيء ولو لم تمسسه نار ، فكيف إذا مسته نار ؟! كل هذه العوامل تزيد المصباح إضاءة ونوراً على نور، والله يوفق من يشاء إلى اتباع نوره ، والإيمان به وبقرآنه، وقد أتى ـ سبحانه ـ بهذه الأمثلة المحسوسة ؛ ليسهل إدراك الأمور المعقولة ، وهو سبحانه وتعالى واسع العلم .

ويأتى السياق فيعقد صلة تصويرية بين مشهد المشكاة هناك ومشهد البيوت هنا ، على طريقة التناسق القرآنية فى عرض المشاهد ذات الشكل المتشابه أو المتقارب ، وهناك صلة مثلها بين المصباح المشرق بالنور فى المشكاة ، والقلوب المشرقة بالنور فى بيوت الله ، تلك البيوت أذن الله فى رفعها ، فهى مرفوعة قائمة ، وهى مطهرة رفيعة ، يتناسق مشهدها المرفوع مع النور المتألق فى السموات والأرض ، وتتناسق طبيعتها الرفيعة مع طبيعة النور السنى الوضيء ، وتتهيأ بالرفعة والارتفاع لأن يذكر فيها اسم الله ، وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة ، المسبحة الواجفة ، المصلية الواهية ، قلوب الرجال مع تعاطيهم التجارة ، لا تلهيهم عن الصلاة وحضور الجماعة ، ويؤدون حق العباد فى الزكاة ، فهم يخشون يوما تتقلب فيه القلوب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب،وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله، ورجاؤهم لن يخيب فى فضل الله، ﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾ ﴾ (البقرة) من فضله الذى لا حدود له ولا قيود .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحث على تيسير أسباب الزواج لما فيه من حكم سامية ، وغايات نبيلة ،وفوائد جليلة .

٢ ـ الإسلام لم يشرع الرق،وإنما فتح أبواب التحرر أمام العبيد والإماء بما شرعه من المكاتبة.

٣ ـ الإيمان نور والكفر ظلمات ، والمؤمن دائما بين الخوف والرجاء يخشى عقاب الله ويرجو رحمته .

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾
٣٥٥

معانى الكلمات :

تلههم : تشغلهم .

سراب : الماء الوهمى .

بقيعة : أرض مستوية .

لجى : عميق .

يغشاه : يعلوه .

صافات : باسطات .

يزجى : يسوق .

الودق : المطر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن ثواب الأعمال متعلق بالإيمان أولا ، ثم الإخلاص وموافقة الشرع ثانية .

٢ ـ أن نتعرف على مشاهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح .

٣ ـ أن نتعلم كيفية النظر فيما حولنا من صنع الله .

المحتوى التربوى :

فى مقابل النور المتجلى فى السموات والأرض، المتبلور فى بيوت الله المشرق فى قلوب الإيمان ، يعرض السياق مجالا آخر ، مجالاً مظلما لا نور فيه ، مخيفا لا أمن فيه ، ضائعا لا خير فيه ، ذلك هو مجال الكفر الذى يعيش فيه الكفار.

والتعبير يرسم لحال الكافرين ومآلهم مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة ، فى المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة ، يلتمع التماعا كاذبا ، فيتبع صاحبه الظامئ ، وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك ، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة ، فهذا السائر وراء السراء ، الظامئ الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك ، يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له ببال ، المرعبة التى تقطع الأوصال وتورث الخبال ،

ووجد الله الذى كفره به وجحده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ، ولو وجد فى هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار .

وفى سرعة عاجلة تتناسق مع بغتة المفاجأة يوفيه الله حسابه وهو سريع الحساب .

وفى المشهد الثانى: تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب، ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى، موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

إنه الكفر ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض فى الكون ، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار ، فنور الله هدى فى القلب ، وتفتح فى البصيرة ، واتصال فى الفطرة بنواميس الله فى السموات والأرض ، والتقاء بها على الله نور السموات والأرض ، فمن لم يتصل بهذا النور ، فهو فى ظلمة لا انكشاف لها ، وفى مخافة لا أمن فيها ، وفى ضلال لا رجعة منه ، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب ؛ لأنه عمل بغير عقيدة ولا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور .

قال ابن كثير : « هذان المثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، كما ضرب للمنافقين فى أول البقرة مثلين ناريا ومائيا ، وكما ضرب لما يقر فى القلوب من الهدى والعلم فى سورة الرعد مثلين : مائيا وناريا ، ثم قال : أما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم أصحاب الجهل المركب الذين يحسبون أنهم على شىء فمثلهم كالسراب ، والثانى لأصحاب الجهل البسيط وهم المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون ، فلا يعرف أحدهم حال من يقوده ولا يدرى أين يذهب ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم ، قيل : فإلى أين تذهبون ؟ قال : لا أدرى » .

ذلك مشهد الكفر والضلال والظلام فى عالم الناس ، يتبعه مشهد الإيمان والهدى والنور فى الكون الفسيح ، مشهد يتمثل فيه الوجود كله ، بمن فيه وما فيه شاخصًا يسبح لله : إنسه وجنه ، أملاكه وأفلاكه ، أحياؤه وجماده ، وإذا الوجود كله تتجاوب بالتسبيح أرجاؤه فى مشهد يرتعش له الوجدان حين يتملاه ، فالإنسان ليس مفرداً فى هذا الكون الفسيح ، فإن من حوله وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته ، وحيثما امتد به النظر أو طاف به الخيال ؛ إخوان له من خلق الله ، لهم طبائع شتى وصور شتى ، وأشكال شتى، ولكنهم بعد ذلك كله يلتقون فى الله ويتوجهون إليه ، ويسبحون بحمده ، والله مطلع على أفعالهم .

ويوجه القرآن الإنسان إلى النظر فيما حوله من صنع الله ، وإلى من حوله من خلق الله فى السموات والأرض ، وهم يسبحون بحمده وتقواه ، ويوجه بصره وقلبه خاصة إلى مشهد فى كل يوم يراه ، فلا يثير انتباهه ولا يحرك قلبه لطول ما يراه ؛ ذلك مشهد الطير صافات أرجلها وهى طائرة فى الفضاء تسبح بحمد الله ، والكل يعلم كيف يسبح ويصلى ، والإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

وإن الكون ليبدو فى هذا المشهد الخاشع متجها كله إلى خالقه ، مسبحا بحمده قائما بصلاته ، وإنه لكذلك فى فطرته ، وفى طاعته لمشيئة خالقه الممثلة فى نواميسه ، وإن الإنسان ليدرك ـ حين يشف ـ هذا المشهد ممثلا فى حسه كأنه يراه ، وإنه ليسمع دقات هذا الكون وإيقاعاته تسابيح لله ، وإنه ليشارك كل كائن فى هذا الوجود صلاته ونجواه ، وكذلك كان محمد بن عبد الله ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ إذا مشى سمع تسبيح الحصا تحت قدميه ، وكذلك كان داود ﷺ يرتل مزاميره فتؤوب الجبال معه والطير ، ولله ملك السموات والأرض فلا اتجاه إلا إليه ، ولا ملجأ من دونه ، ولا مفر من لقائه ، ولا عاصم من عقابه ، وإلى الله المصير .

ومشهد آخر من مشاهد هذا الكون التى يمر عليها الناس غافلين ، وفيها متعة للنظر وعبرة للقلب ، ومجال للتأمل فى صنع الله وآياته ، وفى دلائل النور والهدى والإيمان ، والمشهد يعرض على مهل وفى إطالة ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقى وتتجمع ، كل أولئك لتؤدى الغرض من عرضها فى لمس القلب وإيقاظه وبعثه إلى التأمل والعبرة ، وتدبر ما وراءها من صنع الله ، فيد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ، ثم تؤلف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض فإذا تفل خرج منه الماء ، والوابل الهاطل ، وهو فى هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات.

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله وفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عمن يشاء ، وتكملة المشهد الضخم يكاد لمعان برقه ـ يخطف الأبصار لشدته وقوته ، ذلك ليتم التناسق مع جو النور الكبير فى الكون العريض .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن قلبه معلق بين الخوف والرجاء ، ورجاؤه لا يخيب فى فضل الله .

٢ ـ من لم يتصل قلبه بنور الله تعالى فهو فى ظلمه لا انكشاف لها .

٣ ـ الإنسان وحده هو الذى يغفل عن تسبيح ربه ، وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة .

سورة النور
يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ
﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل
لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
٣٥٦

معانى الكلمات :

مبينات : واضحات .

يتولى : يعرض .

مذعنين : راضين .

مرض : نفاق .

ارتابوا : شكوا فى الدين .

يحيف : يظلم .

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن فى القرآن ما يهدى إلى الحق .

٢ – أن نستشعر خطورة النفاق والمنافقين .

٣ ـ أن نعلم أن المؤمنين ينتهجون منهج الله ولا يحيدون عنه .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق لفت الانتباه فى مشاهد الكون ، مشهد الليل والنهار ، والتأمل فى تقلب الليل والنهار بهذا النظام الذى لا يختل ولا يفتر يوقظ فى القلب الحساسية ، والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد التى ذهبت الألفة بوقعها المثير ؛ ليواجه القلب هذا الكون دائما بحس جديد ، وانفعال جديد .

يقول صاحب الظلال : « والقرآن يجدد حسنا الخامد ويوقظ حواسنا الملول ، ويلمس قلبنا البارد ، ويثير وجداننا الكليل ، لترتاد هذا الكون دائما كما ارتدناه أول مرة ، نقف أمام كل ظاهرة نتأملها ، ونسألها عما وراءها من سر دفين ، ومن سحر مكنون ، ونرقب يد الله تفعل فعلها فى كل شىء من حولنا ، ونتدبر حكمته فى صنعته ، ونعتبر بآياته المبثوثة فى تضاعيف الوجود ، والله

سبحانه ، يريد أن يمن علينا بأن يهبنا الوجود مرة كلما نظرنا إلى إحدى ظواهره ، فاستعدنا نعمة الإحساس بها كأننا نراها أول مرة ، فنظل نجد الكون مرات لا تحصى ، وكأننا فى كل مرة نوهبه من جديد ، ونستمع به من جديد » .

ويمضى السياق فى عرض مشاهد الكون ، فيعرض نشأة الحياة من أصل واحد وطبيعة واحدة ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة ؛ فالله خلق الأحياء كلها من الماء فهى ذات أصل واحد ثم هى ـ كما ترى العين ـ متنوعة الأشكال ، منها الزواحف تمشى على بطنها ، ومنها الإنسان والطير يمشى على قدمين ، ومنها الحيوان يدب على أربع، كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة ، فالله قادر على خلق ما يشاء غير مقيد بشكل ولا هيئة ، فكل ما يجرى فى الكون تحت قدرته .

ويعود السياق إلى موضوع الآداب التى يربى عليها القرآن الجماعة المسلمة ، لتطهر قلوبها وتشرق وتتصل بنور الله فى السموات والأرض ، فيتحدث عن المنافقين ، الذين لا ينتفعون بآيات الله المبينات ولا يهتدون ، فهم يظهرون الإسلام ولكنهم لا يتأدبون بأدب المؤمنين فى طاعة رسول الله ﷺ ، وفى الرضا بحكمه والطمأنينة إليه .

فآيات الله مبينة كاشفة تخلو نور الله ، وتكشف عن ينابيع هذه ، وتحدد الخير والشر والطيب والخبيث والله هو الذى يهدى من نفسه إلى طريق الرشاد ، ومع هذه الآيات المبينات يوجد ذلك الطريق من الناس فريق المنافقين، الذين كانوا يظهرون الإسلام ولا يتأدبون بأدب الإسلام .

يقول صاحب الظلال : « إن الإيمان الصحيح متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية ، فهى بمجرد تحققها فى عالم الشعور تتحرك لتحقق مدلولها فى الخارج ، ولتترجم نفسها إلى حركة وإلى عمل فى عالم الواقع ، ومنهج الإسلام الواضح فى التربية يقوم على أساس تحويل الشعور الباطن بالعقيدة وآدابها إلى حركة سلوكية واقعية ، وتحويل هذه الحركة إلى عادة ثابتة أو قانون ، مع استحياء الدافع الشعورى الأول فى كل حركة ، لتبقى حية متصلة بالينبوع الأصيل » .

وهؤلاء كانوا يقولون الإيمان بأفواههم ، ولكن مدلوله لا يتحقق فى سلوكهم ، وما هذا بفعل أهل الإيمان ، ولقد كان هؤلاء الذين يدعون الإيمان يخالفون مدلوله حين يدعون ليتحاكموا إلى رسول الله ﷺ على شريعة الله التى جاء بها ، ولقد كانوا يعلمون أن حكم الله ورسوله لا يحيد عن الحق ، ولا ينحرف مع الهوى ، ولا يتأثر بالمودة والشنآن ، وهذا الفريق الذى كان يدعى الإيمان ، ثم يسلك هذا السلوك الملتوى ، إنما هو نموذج للمنافقين فى كل زمان ومكان ، والرضا بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق ، وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسول الله ، وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيئ الأدب .

ومن ثم يعقب على فعلة هؤلاء المنافقين بأسئلة تثبت مرض قلوبهم ، وتتعجب من ريبتهم ، وتستنكر تصرفهم الغريب ، والسؤال الأول للإثبات ، فمرض القلب جديرٌ بأن ينشئ مثل هذا الأثر ، وما ينحرف الإنسان هذا الانحراف وهو سليم الفطرة ، والسؤال الثانى للتعجب ، فهل هم يشكون فى حكم الله وهم يزعمون الإيمان ؟ هل هم يشكون فى مجيئه من عند الله ؟ أو هم يشكون فى صلاحيته لإقامة العدل ، على كلتا الحالتين فهذا ليس طريق المؤمنين ؟ والسؤال الثالث للاستنكار والتعجب من أمرهم الغريب ، فهل هم يخافون أن يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد من خلقه ؟ وحكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ؛ لأن الله هو العادل الذى لا يظلم أحداً ، وكل خلقه أمامه سواء .

ومن أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، أم المؤمنون حقا فلهم أدب غير هذا مع الله ورسوله ، ولهم قول آخر إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم هو القول الذى يليق بالمؤمنين ، وينبئ عن إشراق قلوبهم بالنور ، هو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف ، وأولئك هم المفلحون لأن الله هو الذى يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ، فلابد أن يكونوا خيراً ممن يدبر أمورهم ، وهم المفلحون لأنهم مستقيمون على منهج واحد لا عوج فيه ولا التواء ، ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه وخاف الله فيما مضى من ذنوبه ، واتقاه فيما يستقبل ، وهؤلاء هم الذين فازوا بكل خير ، وآمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

يقول صاحب **الظلال** : « وأدب الطاعة لله ورسوله ، مع خشية الله وتقواه أدب رفيع ، ينبئ عن مدى إشراق القلب بنور الله ، واتصاله به وشعوره بهيبته ، كما ينبئ عن عزة القلب المؤمن واستعلائه ،فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله ولا تستمد منها ، هى ذلة يأباها الكريم ، وينفر منها طبع المؤمن ويستعلى عليها ضميره،فالمؤمن الحق لا يحنى رأسه إلا لله الواحد القهار».

وبعد هذه المقابلة بين حسن أدب المؤمنين وسوء أدب المنافقين الذين يدعون الإيمان ، وما هم بمؤمنين يعود السياق لاستكمال الحديث عن هؤلاء المنافقين ، فقد كانوا يقسمون لرسول الله ﷺ لئن أمرهم بالخروج إلى القتال ليخرجن ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، فهو يرد عليهم متهكما لا تحلفوا فطاعتكم معروفة ، فالله يعلم أنكم لا تخرجون ولا تطيعون .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ شريعة الله واضحة مضبوطة ، لا يخشى صاحب الحق منها على حقه ، ولا يلتبس فيها حلال بحرام .

٢ ـ الإيمان متى استقر فى القلب ظهرت آثاره فى السلوك والإسلام عقيدة متحركة لا تطيق السلبية .

٣ ـ السمع والطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله من صفات المؤمنين الصادقين .

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)

٣٥٧

معاني الكلمات :

تولوا : أعرضوا .

حمل : ما أمر به بتبليغ الرسالة .

حملتم : ما أمرتم به من الطاعة والانقياد .

ليستخلفنهم : ليجعلنهم أئمة الناس .

ليمكنن لهم دينهم : يجعله منتشرا بين الناس .

معجزين : فائتين من عذاب الله .

جناح : حرج .

طوافون : جمع طواف ، وهو الذى يدور على أهل البيت للخدمة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على حقيقة الإيمان الذى يؤهل للاستخلاف ، ويحقق وعد الله للمؤمنين .

٢ ـ أن نستشعر خطورة الوعيد الشديد لمن أنعم الله بنعمة السيادة والكرامة فلم يشكرها .

٣ ـ أن نعلم أن الإسلام منهج حياة يتناول كل صغيرة وكبيرة فيها .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن المنافقين فيأمرهم بالطاعة ، الطاعة الحقيقية لا طاعتهم تلك المعروفة المفهومة ، فإن تعرضوا أو تنافقوا ولا تنفذوا فما على الرسول إلا تبليغ الرسالة وقد قام به وأداه ، وعليكم أن تطيعوا وتخلصوا ، وقد نكصتم عنه ولم تؤدوه ، وإن تطيعوه تكون الهداية إلى المنهج القويم ، والرسول ليس مسؤولًا عن إيمانكم وليس مقصرا إن توليتم ، إنما أنتم المسؤولون المعاقبون ، فما عليه إلا البلاغ المبين .

ويلتفت السياق إلى المؤمنين المطيعين ، يبين جزاء الطاعة المخلصة والإيمان العامل فى هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير ، ويبين لهم الوعد بالاستخلاف ، وأن يمكن لهم دينهم الذى

openkandil.com

ارتضى لهم ، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ذلك وعد الله ، ووعد الله واقع ، ووعد الله حق ، ولن يخلف الله وعده ، فما حقيقة ذلك الإيمان ؟ وما حقيقة هذا الاستخلاف ؟

يقول صاحب الظلال : « إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله، فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله ، وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى فى النفس ولا شهوة فى القلب ، ولا ميل فى الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ، ذلك الإيمان منهج حياة كامل يتضمن إعداد العدة والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض .. أمانة الاستخلاف ، فحقيقة الاستخلاف ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم ، إنما هى هذا كله على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق المنهج الذى رسمه الله للبشرية كى تسير عليه ، وتصل على طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض اللائق بخليفة أكرمها الله ، فالاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد ، وهذا الاستخلاف هو الذى وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

ولقد كانوا خائفين لا يأمنون ، ولا يضعون سلاحهم أبداً حتى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى قاعدة الإسلام الأولى بالمدينة ، أما من كفر بعد ذلك فهو الخارجون على شرط الله ووعد الله وعهد لله .

ويعقب الله على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة وبالا يحسب الرسول ﷺ وأمته حسابا لقوة الكافرين الذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذى ارتضى لهم ، فهذه هى العدة .. الاتصال بالله ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة والاستعلاء على الشح بإيثار الزكاة ، وطاعة الرسول والرضا بحكمه ، ولا شك من فعل ذلك فأولئك سيرحمهم الله ، فإذا استقمتم على النهج فلا عليكم من قوة الكافرين فما هم بمعجزين فى الأرض ، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم فى أى طريق وأنتم أقوياء بإيمانكم ، ومأواهم فى الدار الآخرة النار وبئس المآل مآل الكافرين، وبئس القرار بئس المهاد .

ويمضى السياق ليعلن أن الإسلام منهج حياة كامل ، فهو ينظم حياة الإنسان فى كل أطوارها ومراحلها وفى كل علاقاتها وارتباطاتها ، وفى كل حركاتها وسكناتها ، ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة ، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة ، وينسق بينها جميعا ، ويتجه بها إلى الله فى النهاية ، وها هو السياق يعود إلى آداب الاستئذان فى داخل البيوت ، ولقد سبقت أحكام الاستئذان على البيوت ، فالخدم من الرقيق والأطفال المميزون الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون بلا

استئذان ، إلا فى ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة ، فهم يستأذنون فيها ، هذه الأوقات هى : الوقت قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم عادة أو أنهم يغيرونها ويلبسون ثياب الخروج ، ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم فى العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة ، ويعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ، ويرتدون ثياب الليل ، وسماها عورات لانكشاف العورات فيها .

قال القاسمى : « فى الآية إقرار ما جرت به العادة من أن النوم وقته بعد العشاء وقبل الفجر ، ووقت الظهيرة ، وقد يستدل بها على أن كشف العورة فى الخلوة جائز » .

وقال الرازى : « الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل فى الأحكام إذا أمكن لأنه تعالى نبه على العلة فى هذه الأوقات الثلاثة من وجهين أحدهما يقول : ﴿ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ ﴾ والثانى : بالتنبيه على الفريق بين هذه الأوقات الثلاثة ، وبين ما عداها ، بأنه ليس ذاك إلا لعلة التكشف فى هذه الأوقات الثلاثة ، وأنه لا يؤمن وقوع التكشف فيها، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات » .

وفى هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم ، وأن يستأذن الصغار والميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كى لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم ، وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة وأن الصغار قبل البلوغ لا يتنبهون لهذه المناظر ، بينما يقرر النفسيون اليوم بعد تقدم العلوم النفسية ـ أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها .

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذا الآداب ، وهو يريد أن يبنى أمة سليمة الأعصاب سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات ، ويخصص هذه الأوقات الثلاثة دون غيرها ؛ لأنها مظنة انكشاف العورات ، ولا يجعل استئذان الخدم والصغار فى كل حين منعا للحرج ، فهم كثير والدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة ، وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات ، وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنسانى كله .

٢ ـ الاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد .

٣ ـ ضرورة استئذان الخدم والأطفال قبل الدخول على الكبار فى أوقات الخلوات والراحات .

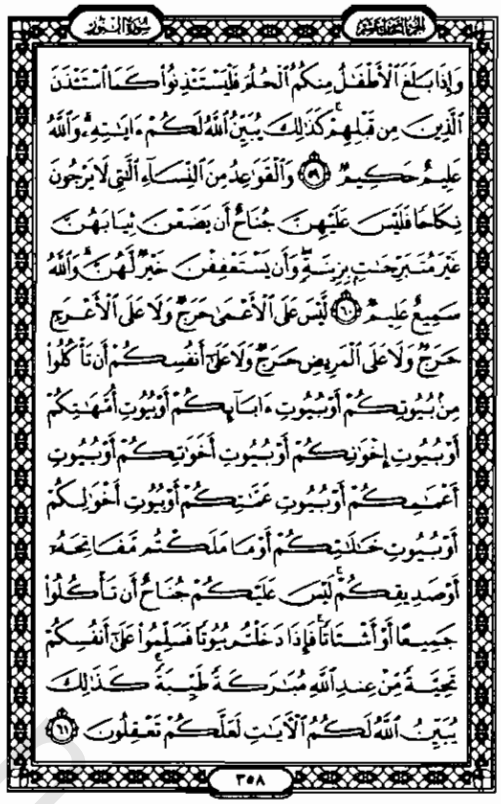
وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

معانى الكلمات :

القواعد : العجائز .

متبرجات بزينة : مظهرات للزينة الخفية .

حرج : إثم .

ما ملكتم مفاتحه : ما كان فى تصرفكم .

جميعا أو أشتاتا : مجتمعين أو متفرقين .

مباركة : بالأجر والثواب .

طيبة : حسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم تنظيم العلاقات بين الأسرة وأفرادها حين يدرك الصغار سن البلوغ .

٢ ـ أن نتعرف على تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء .

٣ ـ أن نستشعر قوة ارتباط قلوب المؤمنين بربهم فى الصغيرة والكبيرة .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن العلاقات الأسرية من حيث الاستئذان ، فينبه حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون فى حكم الأجانب الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت حسب النص العام ، الذى مضت به آية الاستئذان، ويعقب على الآية بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ؛ لأن المقام مقام علم الله بنفوس البشر ، وما يصلحها من الآداب ، ومقام حكمته كذلك فى علاج النفوس والقلوب .

ولقد سبق الأمر كذلك بإخفاء زينة النساء منعا لإثارة الفتن والشهوات ، فعاد هنا يستثنى من النساء القواعد اللواتى فرغت نفوسهن من معاشرة الرجال ، وفرغت أجسامهن من الفتنة المثيرة للشهوات ، فهؤلاء القواعد لا حرج عليهن أن يخلعن ثيابهن الخارجية على ألا تتكشف

عوراتهن ولا يكشفن عن زينة ، وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الفضفاضة ، وسمى هذا استعفافا أى طلبا للعفة وإيثارا لها لما بين التبرج والفتنة من صلة ، وبين التحجب والعفة من صلة ، وذلك حسب نظرية الإسلام فى أن خير سبل العفة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس ، والله يسمع ويعلم ويطلع على ما يقوله اللسان ، وما يوسوس فى الجنان والأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير .

يقول الإمام محمد أبو زهرة على هذه الآية : « هى للأهل الذين يسكنون فى دار واحدة ، وهم مختلطون يدخل بعضهم بيوت البيتوتة من غير حرج أو استئذان ، فالآية تعلم الناس أدب الاختلاط ، سواء أكانوا ذوى أرحام أم لم يكونوا ... » .

ثم يمضى فى تنظيم العلاقات والارتباطات بين الأقارب والأصدقاء ، فقد روى أنهم كانوا يأكلون من هذه البيوت المذكورة دون استئذان ، ويستصحبون معهم العمى والعرج والمرضى ليطعموا الفقراء منهم ، فتحرجوا أن يطعموا ، وتحرج هؤلاء أن يصحبوهم دون دعوة من أصحاب البيوت أو إذن ، فقد كانت حساسيتهم مرهفة ، فكانوا يحذرون دائما أن يقعوا فيما نهى الله عنه ، ويتحرجون أن يلموا بالمحظور ولو من بعيد ، فأنزل الله هذه الآية ، ترفع الحرج عن الأعمى والمريض والأعرج وعن القريب أن يأكل من بيت قريبة ، وأن يصحب معه أمثال هؤلاء المحاويج ، وذلك محمول على أن صاحب البيت لا يكره هذا ولا يتضرر به ،استنادًا إلى القواعد العامة فى أنه لا ضرر ولا ضرار ، وإلى أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس .

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظى والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالا للشك والغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القرابات ، فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول : ﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ ، فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت لزوجته ، وتليها بيوت الآباء فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات، فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات، ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه ويلحق بها بيوت الأصدقاء ، ليلحق صلتهم بصلة القرابة عند عدم التأذى والضرر ، فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان .

فإذا انتهى من بيان البيوت التى يجوز الأكل منها ، بين الحالة التى يجوز عليها الأكل ، فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام ، فرفع الله هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر الى بساطته بلا تعقيد ، وأباح أن يأكلوا أفراداً أو جماعات .

فإذا انتهى من بيان الحالة التى يكون عليها الأكل ذكر آداب دخول البيوت التى يؤكل فيها حتى إذا كانت خالية من أفرادها ، وهو تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين فى الآية ، فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه ، والتحية التى يلقيها عليه هى تحية من عند الله تحمل ذلك الروح ، وتفوح بذلك العطر ، وتربط بينهم بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وهكذا ترتبط القلوب المؤمنة بربهم فى الصغيرة والكبيرة ، والله يبين هذه الآيات لعلكم تعقلون ، وتدركون ما فى المنهج الإلهى من حكمة وتقدير .

قال القاسمى : « قيل : كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات إلى بيوت أزواجهم وأولادهم ، وإلى بيوت قراباتهم وأصدقائهم ، فيطعمونهم منها ، فخالج قلوب المطعمين والمطعمين ريبة فى ذلك ، وخافوا أن يلحقهم فيه حرج ، وكرهوا أن يكون أكلا بغير حق ، فقيل لهم : ليس على الضعفاء ولا على أنفسكم يعنى عليكم ، وعلى مَنْ فى مثل حالكم من المؤمنين حرج فى ذلك .

وقيل كان هؤلاء يتوقون مجالسة الناس ومؤاكلتهم ، لما عسى يؤدى إلى الكراهة من قبلهم ؛ ولأن الأعمى بما سبقت يده الى ما سبقت عن أكيله إليه وهو يشعر ، والأعرج يتفسح فى مجلسه ، ويأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه ، والمريض لا يخلو عن حالة تؤنف .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتحرجون . فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تحرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا ما ذكروه ، ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ، ونفى الحرج عنه كله ، ولا يستلزم نفى الحرج عن مؤاكلة المريض على هذه الأوجه الأخر ، أن يشرك أكيله الصحيح فى غمس يده من إنائه مما حظر منه الطب ، وغدت الأنفس تعافه ، بل يراد حضوره مع الصحيح على مائدة، واختصاصه بقصعة على حدة ، وما أحسن عادة الانفراد بالقصاع مما تطيب معه نفس المرضى والأصحاء فى الاجتماع » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ النساء العجائز اللاتى لا يطمع فيهن الرجال لكبرهن لا يجب عليهن المبالغة فى التستر، والتستر وهو خير لهن .

٢ ـ إباحة الأكل من بيوت الأقارب للمؤانسة والمباسطة التى تكون فى العادة بينهم .

٣ ـ إفشاء السلام من الآداب الإسلامية العظيمة التى تشيع المحبة بين الناس .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

٣٥٩

معانى الكلمات :

آمنوا : صدقوا بقلوبهم .

جامع : مهم .

دعاء الرسول : نداءكم له .

يتسللون : ينصرفون خفية .

لواذا : يستتر بعضهم بعضا .

يخالفون : يعرضون .

تبارك : تعالت صفات الله .

قدّره : هيأه لما يصلح له .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على تنظيم العلاقات بين أسرة المسلمين وقائدها محمد ﷺ .

٢ ـ أن نعلم عاقبة المنافقين الذين يتبعون نهجا غير نهج الإسلام .

٣ ـ أن نتعرف على مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق من تنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، إلى تنظيمها بين الأسرة الكبيرة أسرة المسلمين ورئيسها وقائدها محمد رسول الله ﷺ ، وإلى آداب المسلمين فى مجلس الرسول ، وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهى تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها ، هذه الآداب التى لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها ، ثم تستقر فى حياتها فتصبح تقليداً متبعا وقانونا نافذاً ، وإلا فهى الفوضى التى لا حدود لها ، فالمؤمنون يؤمنون بالله ورسوله لا الذين يقولون بأفواههم ثم لا يحققون مدلول قولهم ـ ولا يطيعون الله ورسوله ، وإذا كانوا معه على الأمر الجامع الهام الذى يقتضى اشتراك الجماعة فيه ،

obeikandl.com

لرأى أو حزب أو عمل من الأعمال العامة ، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كى لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام .

وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ، ويلتزمون هذا الأدب ، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون ، فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذى يشغل بال الجماعة ، ويستدعى تجمعها له،ومع هذا فالقرآن يدع الرأى فى الإذن أو عدمه للرسول ﷺ رئيس الجماعة ، بعد أن يبيح له حرية الإذن ، يدع له الرأى فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن ، فيرفع الحرج عن عدم الإذن ، وقد تكون هناك ضرورة ملحة ، ويستبقى حرمة التقدير لقائد الجماعة ؛ ليوازن بين المصلحة فى الانصراف ، ويترك له الكلمة الأخيرة فى هذه المسألة التنظيمية يديرها بما يراه .

ومع هذا يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى ، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضى استغفار النبى ﷺ للمعتذرين ، وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن ، وله مندوحة لقهر العذر الذى يدفع به إلى الاستئذان .

ويلتفت السياق إلى توقير الرسول ﷺ عند الاستئذان ، وفى كل الأحوال ، فلا يدعى باسمه : يا محمد ، أو كنيته : يا أبا القاسم . كما يدعو المسلمون بعضهم بعضا ، إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه : يا نبى الله ، يا رسول الله ، فلابد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه ، وهى لفتة ضرورية ، فلابد للمربى من وقار ، ولابد للقائد من هيبة ، وفرق بين أن يكون هو متواضعا هينا لينا ، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم لبعض ، يجب أن تبقى منزلته فى نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم فى قرارة شعورهم ، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير .

ثم يحذر المنافقين الذين يتسللون ويذهبون بدون إذن ، يلوذ بعضهم ببعض ، ويتدارى بعضهم ببعض ، فعين الله عليهم ، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ، وهو تعبير يصور حركة التخلى والتسلل بحذر من المجلس ، ويتمثل فيها الجبن عن المواجهة ، وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها فى النفوس، وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعيب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويتبعون نهجاً غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها ، فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر ، وهى فترة شقاء للجميع فى الدين أو فى الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ، ونهجه الذى ارتضاه للحياة .

ويختم هذا التحذير ، ويختم معه السورة كلها بإشعار القلوب المؤمنة والمنحرفة بأن الله مطلع عليها ، رقيب على عملها ، عالم بما تنطوى عليه وتخفيه ، وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله ، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير ، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهى ، وهذه الأخلاق والآداب التى فرضها الله فى هذه السورة ، وجعلها كلها سواء .

سورة الفرقان

هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية وتطمين له ، وتقوية وهو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليه ، وتعنتهم معه ، وجدالهم بالباطل ، ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

يبدأ الشوط الأول منها بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن من عنده ، وعموم الرسالة إلى البشر جميعا ، ووحدانية الله المطلقة ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، وملكيته لهذا الكون كله ، وتدبيره بحكمة وتقدير ، وبعد ذلك كله يشرك المشركون ، ويفترى المفترون ، ويجادل المجادلون ، ويتطاول المتطاولون ، والتبادل تفاعل من البركة يوحى بالزيادة فيها والفيض والرفعة جميعا .

يقول صاحب **الظلال** : « وسماه فرقانا بما فيه من فارقٍ بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بل بما فيه من تفرقة بين نهج فى الحياة ونهج ، وبين عهد للبشرية وعهد ، فالقرآن يرسم منهجا واضحا للحياة كلها فى صورتها المستقرة فى الضمير ، وصورتها الممثلة فى الواقع » .

ويرسم الغاية من تنزيل الفرقان على عبده ، وأنه رسالة للعالمين وطبيعة هذه الرسالة طبيعة عالمية شاملة ، ووسائلها وسائل إنسانية كاملة ، ونهايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ، ومن نهج على نهج عن طريق هذا الفرقان الذى نزله صاحب السيطرة المطلقة على السموات والأرض ، فهو سبحانه باق لا يفنى ، قادر لا يحتاج إلى ولد أو شريك فى الملك ، والكل شاهد وعلى وحدة التصميم ووحدة الناموس ووحدة التصريف ، وقد قدر سبحانه قدر كل شىء وحجمه وشكله ، وقدر وظيفته وعمله ، وقدر زمان ومكانه ، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ ، وحرمة مخالفة أمره ونهيه ، وتوقيره فى حياته وبعد مماته .

٢ ـ المتجرئ على الاستهانة بسنة رسول الله ﷺ يخشى عليه أن يموت على سوء الخاتمة .

٣ ـ ضرورة التفكير والبحث فى مختلف العلوم للتعرف على حكمة الله تعالى وبديع صنعه .